وأعاده الى مملكته حتى يتبين خبث طويته ثم سار إلى الموصل فتلقاه الملوك من كل ناحية وجاء إلى خدمته عمادالدين أبو بكر بن قرا أرسلان وسار السلطان فنزل على الاسماعيليات قريبا من الموصل وجاءه صاحب إربل نور الدين الذي خضعت له ملوك تلك الناحية ثم أرسل صلاح الدين الدين ضياء الدين الشهر زورى إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام فحاصرها مدة ثم رحل عنها ولم يفتحها وسار إلى خلاط واستحوذ على بلدان كثيرة وأقاليم جمة ببلاد الجزيرة وديار بكر وجرت أمور استقصاها ابن الأثير في كامله وصاحب الروضتين ثم وقع الصلح بينه وبين المواصلة على أن يكونوا من جنده إذا ندبهم لقتال الفرنج وعلى أن يخطب له وتضرب له السكة ففعلوا ذلك في تلك البلاد كلها وانقطعت خطبة السلاجقة والازيقية بتلك البلاد كلها ثم اتفق مرض السلطان بعد ذلك مرضا شديدا فكان يتجلد ولا يظهر شيئا من الألم حتى قوي عليه الأمر وتزايد الحال حتى وصل إلى حران فخيم هنالك من شدة ألمه وشاع ذلك في البلاد وخاف الناس عليه وأرجف الكفرة والملحدون بموته وقصده أخوه العادل من حلب بالأطباء والأدوية فوجده في غاية الضعف وأشار عليه بأن يوصي فقال ما أبالي وأنا أترك من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعليا يعني أخاه العادل وتقي الدين عمر صاحب حماه وهو إذ ذاك نائب مصر وهو بها مقيم وابنيه العزيز عثمان والأفضل عليا ثم نذر لئن شفاه ا من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج ولا يقاتل بعد ذلك مسلما وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ا جميع ما يملكه من الأموال والذخائر وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده لأنه نقض العهد وتنقص الرسول (ص) وذلك أنه أخذ قافلة ذاهبة من مصر إلى الشام فأخذ أموالهم وضرب رقابهم وهو يقول أين محمدكم دعوه ينصركم وكان هذا النذر كله بأشارة القاضي الفاضل وهو أرشده إليه وحثه عليه حتى عقده مع ا D فعند ذلك شفاه ا وعافاه من ذلك المرض الذي كان فيه كفارة لذنوبه وجاءت البشارات بذلك من كل ناحية فدقت البشائر وزينت البلاد وكتب الفاضل من دمشق وهو مقيم بها إلى المظفر عمر أن العافية الناصرية قد استقامت وأستفاضت أخبارها وطلعت بعد الظلمة أنوارها وظهرت بعد الاختفاء آثارها وولت العلة و الحمد والمنة وطفئت نارها وأنجلى غبارها وخمد شرارها وما كانت إلا فلتة وقى ا شرها وشنارها وعظمية كفى ا الإسلام عارها وتوبة امتحن ا بها نفوسنا فرأى أقل ما عندها صبرنا وماكان ا ليضيع الدعاء وقد أخلصته القلوب ولا تتوقف الاجابة وإن سدت طريقها الذنوب ولا ليخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب ... نعي زاد فيه الدهر ميما ... فأصبح بعده بؤساه

نعيما